المحاضرة (06) السادسة : أبرز المعالم العلمية في الجزائر من القديم إلى الحديث:

تقديم الدكتور : عبد المالك صاولي

السنة أولى ماستر-سمعي بصري+الصحافة المطبوعة

المقياس : تاريخ الجزائر الثقافي

العام الجامعي : 2023/2022

جامعة مداوروش أول جامعة في افريقيا :

اول جامعة في شمال افريقيا "جامعة مادور" بمدينة مداوروش (مادوريس –أرض الرطوبة والنداوه-) ، وتسمى ايضا طاغاست تقع بسوق اهراس - الجزائر -،،، هنا كتب "لوكيوس ابوليوس ،أول رواية في التاريخ " الحمار الذهبي " ...و هنا ألقى "القديس اوغسطين " دروسه وتعاليمه ، مادور هي مدينة أثرية ، يطلق عليها مادور أو مادوريس و تقع في الجنوب الشرقي لولاية سوق أهراس ، طاغاست قديما.

تعد هذه البقعة الأثرية ذات تاريخ تمنح زوارها تنوعا سياحيا كبيرا يعود بهم إلى غابر الأزمان أين كانت عاصمة لأول جامعة رومانية في افريقيا، يلتقي بها الطلبة من شتى أنحاء المعمورة، فهي تمثل منذ نشأتها قطبا للإشعاع العلمي إلى أن غزاها البيزنطيون عام 534 م، فهو المكان الذي ساهم في إنجاب وتكوين شخصيات لوكيوس أبوليوس، الأديب والفيلسوف الأمازيغي النوميدي الذي كان يطلق على نفسه «آبوليوس المادوري الأفلاطوني» و الذي يعد صاحب أول رواية في التاريخ و الموسومة «الحمار الذهبي» أو «التحولات»، وكذا اسم النحوي و صديق القديس أوغستين، «ماكسيم» و عالم الفلك و الكاتب «مارتيانوس كابيلا « و غيرها من الأسماء

لاننسى دور القديس اوغستين وجهوده في إعادة وحدة الكنيسة الغربية.

ولد اورليوس اوغستينوس - القديس اوغستين يوم 13 نوفمبر 354م بطغاست وكان ابوه القديس بطريقوس وثنيا أما أمه القديسة مونيكا فكانت مسيحية من النساء الصالحات، عاش أولا في الوثنية واهتدى إلى عقيدة أمه القديسة مونيكا وقبل المعمودية من القديس امبرواز سنة 387 م ومنذ ذلك الحين اصبحت حياته كلها عبادة وتقوى وتبشير فتبرع بجميع ما يملك من متاع الدنيا على الفقراء والمساكين ورقاه اسقف مدينة هيبون إلى درجة قسيس سنة 391 م ثم اتخذه معاونا له سنة 397 م.

أهم المدارس في القرون الوسطى :

1- مـدرســة ولــدي الإمــام:

يعتبر السلطان أبي حمو موسى الأول مؤسس أول مدرسة في تاريخ تلمسان الزيانية،وعرفت باسم مدرسة الأخوين ابني الإمام وذلك سنة 710هـ /1310م ،وقد أنشأها تكريما للعالمين الجليلين الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن ،وأخيه أبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمـام ، و اللذان دخلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما وابتنى لهما هذه المدرسـة بناحيـة المطمر والتي سميت باسمهما،كما اختط لهما مسجدا و منزلين.

ولما كانت مدرسة أولاد الإمام هي أول مؤسسة تربوية ثقافية في حاضرة الدولة الزيانية ،فقد عين السلطان للتدريس بها كبار العلماء ، حيث قام بالتدريس فيها علماء من أمثال التلمسانيان ابنا الإمام و شيخا المالكية .

ولما لم يبق أي أثر للمدرسة و منزلي الإمامين ،فقد حاول المؤرخ الفرنسي (جورج مارسيه-Georges MARCAIS)من خلال ما توصل إليه من دلائل و قرائن تاريخية أن يرسم صورة افتراضية للمعلم .وحسب ما توصل إليه من نتائج فإن المدرسة كانت تتموقع غرب مسجد أولاد الإمام و شماله ،وأنها كانت تتألف من قاعتين كبيرتين ، يتلقى فيها طلبة العلم دروسهم على يد الشيخين الجليلين ابني الإمام . ولكن في غياب الشواهد المادية المتمثلة في الحوالات الحبسية أو وثائق التحبيس الملحقة بالمدرسة، يصعب على أي كان

التعرف على دور المدرسة الفكري، ومساهمتها في نشر الثقافة الإسلامية و مختلف العلوم ، وتكوين الأطر وإعدادها للقيام بدورها في المجتمع بالتعليم و التأليف و شغل المناصب العليا في الدولة ، واستمرت هذه المدرسة في تأدية مهامها التربوية التعليمية الثقافية حتى القرن العاشر ،السادس عشر ميلادي .

المدرسة التاشفينية:

تعد المدرسة التاشفينية ثاني مؤسسة تعليمية زيانية أسست ببلاد المغرب الأوسط سنة 725هـ/1179م، بناها السلطان عبد الرحمن أبو تاشفين (718هـ/1318م- 737هـ/1337م)على ضريح والده يعقوب وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، وتمّ تدشينها في شهر صفر سنة 765هـ/1364م . تقع التاشفينية بإزاء المسجد الجامع جنوبا .وهي بذلك توجد في مجال يعتبر النواة الأولى بعد جامع أغادير الذي أسسه إدريس الأول خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي .

توجد هذه المدرسة بجوار مسجد الشيخ إبراهيم المصمودي، شرق مسجد أبي الحسن وجنوب غرب المشور في حي باب الحديد. شيدت هذه المدرسة بأمر من الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني(760هـ-791هـ)(1358م-1388م) سنة 763هـ الفترة السابقة ،

ويتبين أن اختيار موضع التاشفينية ،لم يكن وليد الصدفة ،بل خضع لاعتبارات إستراتيجية تكمن في رغبة مؤسسها في الاستفادة من هذا المجال الحيوي ،واستثماره كي تنجح هذه المدرسة في أداء رسالتها التعليمية الثقافية،وطموحه في إضفاء طابع الإجلال و العظمة عليها، فكانت من خلال ذلك أهم مدرسة في المغرب الأوسط .

من بين المصادر القليلة التي أشارت إلى التاشفينية وتغنت بروعتها ورونقها ،نذكر كتاب (نفح الطيب) للمقري، وقد ظلت هذه المدرسة التي كانت تعد من أجمل مدارس المغرب الأوسط تقوم بوظيفتها التربوية التثقيفية طوال فترة تواجد الدولة الزيانية ، واستمرت ،تؤدي رسالتها حتى القرن السادس عشر.

رغم الأهمية التاريخية للمدرسة إلا أنها طمست آثارها ولم يبق من ذكرها إلا الاسم، وقد كانت هذه المدرسة قائمة ومحافظة على شكلها الأصلي إلى غاية 1873م، غير أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قامت بإزالتها بغرض تهيئة ساحة عامة وبنيت بدلها دار البلدية الحالية.

2)-المداس المرينية: مدرسة العباد:

أنشأها السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني سنة (747هـ/1347م) في القرية المسماة العباد ،لتكون مركزا علميا ثقافيا راقيا يستطيع أن يزاحم ما تواجد آنذاك من مدارس علمية معرفية. كما عرفت المدرسة أيضا باسم سيدي بومدين وهذا لتخليد ذكرى العالم الجليل الذي ذاع صيته في جميع أنحاء بلاد المغرب الإسلامي وهو أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري دفين تلمسان (ت 594هـ/1197م) .

أشار إليها الحسن الوزان في كتابه، فقال في شأنها:"...وهناك أيضا مدرسة جميلة جدا أسسها بعض ملوك بني مرين حسب ما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم".وهي تقع إلى الغرب من المسجد الجامع .وأكدت وثيقة التحبيس المنقوشة على لوح رخامي مثبت على يسار بلاطة محراب الجامع الملاصق لها ، و التي نقرأ فيها :"الحمد لله رب العالمين و العاقبة للمتقين ،أمر ببناء هذا الجامع المبارك و المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهدين في سبيل رب العالمين أبو الحسن..." .وسميت المدرسة أيضا بالخلدونية في فترة لاحقة و لعل هذا تأكيد على تعلم عبد الرحمن ابن خلدون بها . وقد ظلت هذه مدرسة العباد قائمة تصارع عوادي الزمن بالرغم من أن كثيرا من زينتها وزخرفتها الأصلية قد اندثرت بفعل الترميم والإصلاحات التي أدخلت عليها على مّر العصور فأفقدتها كثيرا من أصالتها ، إ لاّ أنها ما تزال تحتفظ بهيكلها و

شكلها العام الذي هو شبيه بشكل المسجد إلاّ أنها تختلف معه في الوظيفة ،فهي تتكون من قاعة للصلاة و غرف لسكنى الطلبة و تتوسطها ساحة ، إضافة إلى المكتبة و مرافق عامة ،وهي تتكون من طابقين .ومن هنا يمكن القول بأن تصميم المدرسة جاء مزدوج المعالم فهي عبارة عن مسجد مدرسي . ومن هنا يتضح لنا دورها الثقافي الذي تمثل في إقراء القرآن الكريم و تدريس العلم إحياء لتقاليد المذهب المالكي و فروعه.

مدرسة سيدي الحلوي:

إذا كانت مدرسة العباد أول مدرسة تعليمية جامعية أسست ملاصقة للجامع ،فإن السلطان أبا عنان فارس المتوكل على الله (749هـ/1348م -759هـ/1358م)،أنشأ هو الآخر مدرسة بجوار ضريح الولى الصالح المتصوف أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بسيدي الحلوي، وكان ذلك سنة 754 هـ /1353م .ويكون بذلك السلطان أبا عنان قد حذا حذو والده في هذا المجال .كيف لا و السلطان كما ذكر إبن بطوطة في وصفه لمجالسه العلمية :"لم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية

لقد ظلت هذه المنارات العلمية قائمة تؤدي رسالتها التربوية على أكمل وجه حتى القرن 10هـ/16م،وهذا بشهادة حسن الوزان:"وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة ...ولها أئمة وخطباء، كما تحوي أيضا خمس مدارس بديعة حسنة البناء و مزدانة بالبلاط الملّون وغيرها من الأعمال الفنية ،شيد بعضها ملوك تلمسان ،و البعض الآخر ملوك فاس"، كما أكد مارمول في كتابه إفريقيا أن تلمسان بها "عدة أساتذة في مختلف مدارس يقومون بالتدريس كل يوم و يؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات" فزودت بالمرافق الضرورية من خزانة للكتب و بيوت لسكنى الطلبة وفرض جرايات لهم و للمدرسين.ومن دون أدنى شك أن فكرة إنجاز المدارس الجامعة من قبل المرينين لم تكن بالجديدة بل سبقهم في ذلك سلاطين الموحدين وبني حفص.غير أن مدارس المرينيين تميزت عن سابقاتها في المجالات التنظيمية و الفنية ،وكذلك في الفكري الذي نشّطته في بلاد المغرب الإسلامي بشكل عام .لذلك استهدف سلاطين بنو مرين استحداث المدارس في بلاد المغرب الأوسط و المغرب الإسلامي عامة لمحاربة المذهب الموحدي وإحياء المذهب المالكي الذي فقد مشروعيته ونشاط فقهائه .

و من دون شك أن تشييد المدارس لم يكن مقتصرا على عاصمة الدولة الزيانية بل كانت هناك من المدن المهمة مثل: الجزائر و وهران و مليانة و مستغانم وغيرها.

المدرسة الثعالبية:

يعدّ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي واحدا من أهم الشخصيات وأبرزها في تاريخ منطقة المغرب العربي، ظلّ ذائع الصيت وملأ صيته المعمورة لما اشتهر به من علم ونضال وورع. جعفري النسب، إذ يمتدّ نسبه بحسب الرواة إلى جعفر ابن أبي طالب. وُلد سنة 785هـ /1384 ميلادية بوادي يسر ضواحي عاصمة الجزائر، وشغف الثعالبي منذ نعومة أظفاره بحب العلم، فدرس بالمغرب الأقصى، ثم انتقل إلى عاصمة الحماديين "بجاية"، ليرحل عنها بعد وفاة أبيه الذي دفن في نفس المدينة، ثم انتقل إلى تونس في 810ه/1406م، وهو ما تزامن مع وفاة مؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون.
تلقى الثعالبي، العلوم الشرعية والعصرية كالطب والفلك والحساب، واشتهر بذكائه وقوة حفظه، وهو ما صنع شعبيته عندما استقر لفترة في مصر وتركيا، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه ويؤسس المدرسة الثعالبية التي خلّفت أجيالا من العلماء والمفكرين، كما أسهم في الذود عن الجزائر، بعدما زادت التحرشات الاسبانية والبرتغالية أوجها بشمال إفريقيا، نتيجة تنازع دويلات المغرب الضعيفة سنة 819 ه/1414م، ويشدّد الباحث الجزائري عبد الرحمن الجيلالي رحمه الله، بهذا الصدد، على أنّ الثعالبي كان له دور حاسم في انتظام النضال الحربي والسياسي في الجزائر وعموم المنطقة المغاربية، كما أسهم الثعالبي في إخراج أهل الجزائر من أميتهم وتخلفهم الفكري والثقافي، بعد أن كانوا لا يؤمنون إلا بالكرامات وتقديس الأولياء والمعجزات.

ظروف نشأتها : كما أن كثيرًا من العلماء الجزائريين هاجروا إلى المشرق العربي، وإلى البلاد الإسلامية الأخرى، يتحيّنون الفرص للرجوع إلى الوطن وتطهيره من سيطرة الفرنسيين، كل ذلك ساهم في انتشار الجهل وتفشي الأمية بين أفراد الأمة، مما أثّر سلبًا على الحياة الفكرية في تلك الفترة.

التعليم الفرنسي البديل:

قام الاحتلال الفرنسي للجزائر بالتخطيط لفتح مدارس لتعليم نخبة قليلة العدد من أبناء الجزائر، ورفع مستواهم الثقافي، يقصد من وراء ذلك تجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية، ومحاولة إدماجه وصهره في البوتقة الفرنسية بإعطائه تعليمًا هزيلاً يجعله أسهل انقيادًا لسياسته.

كما كان يهدف إلى قتل ووأد الروح الوطنية التي أدت إلى اشتعال الثورات المتوالية، وجعل الشعب أكثر خضوعًا للاحتلال، وذلك بإيجاد قلة متعلمة للاستفادة منها في بعض الوظائف التي تخدم الاحتلال.

ولذلك أنشأت فرنسا لهذا الغرض عدة مدارس ابتدائية، منها المدارس (الفرنسوية الإسلامية-Franco Musulmane)، في الجزائر العاصمة وبعض المدن الأخرى ابتداءً من سنة 1836م.

الـــــــــــــزاوية العثمانيـــــــــة مـــــــــــنارة لأهل طولقة ومكانة لها وفخر لمدينة بسكرة :

ان أهم الزوايا في الجزائر التي بنيت على قواعـد سليمة راسخة في العلم و الإيمان رسوخ الجبال...زاوية علي بن عمر الشيخ الزاهد العابد بها مسجد للعبادة و مدرسة لتعليم القرآن و العلوم الشرعية و التي تخرج منها كبار الشيوخ و العلماء ممن قدموا الكثير للجزائر علما وجهادا و هي من المعاقل العامة التي جابهت المستعمر الفرنسي و كل محاولات التنصير.

نبذة عن حياة مؤسس الزاوية :

هو الشيخ علي بن عمر المشهود له بالزهد و الصلاح و التقوى و النسب الشريف ، وهب حياته للعلم و الإرشاد و الدعوة إلى الله، و لد في طولقة بالتقريب سنة 1166 هـ و توفي يوم الخميس 03 ربيع الأول سنة 1258 هـ و دفن بالزاوية .

تأسيس الزاوية :

عندما بلغ الشيخ علي بن عمر حوالي 26 سنة من عمره طلب منه شيخه محمد بن عزوز تأسيس زاوية فكانت الزاوية العثمانية بالنسبة إلى جده عثمان سنة 1191هـ الموافق لـ 1780م ، و منذ ذلك الوقت و هي تحمل أمانة واجب الدعوة إلى الله و الحفاظ على كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه و سلم ، بعيدة كل البعد عن كل مظاهر البدع و الخرافة ، إضافة إلى دورها الاجتماعي و التاريخي.

الشيوخ الذين تعاقبوا على الزاوية

1/ الشيخ مصطفى بن عزوز . 2/ الشيخ علي بن عثمان أكبر أبناء الشيخ علي بن عمر.

3/الشيخ عمر بن علي بن عثمان . 4/ الشيخ الحاج بن علي بن عثمان .

5/الشيخ عبد الرحمان بن الحاج بن علي بن عثمان .

6/ الشيخ عبد القادر بن الحاج بن علي بن عثمان) شيخ الزاوية الحالي أطال الله عمره).

دور الزاوية:

تعليم و تحفيظ القرآن الكريم، ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة، تدريس العلوم الشرعية، تولي الفتوى الشرعية.

أما في الجانب النضالي : فقد شارك شيخ الزاوية عمر بن علي في انتفاضة عين التوتة سنة1916م و في ثورة التحرير ، كما سجن شيخها عبد الرحمن والتحق اثنان من أبنائه بصفوف جيش التحرير ، كما حكم بالإعدام على الشيخ عبد القادر مما اضطره إلى الهجرة إلى المغرب في ماي 1957م كما كانت الزاوية مركزا للجيش و مكث بها القائد سي الحواس مع مجموعة من المجاهدين حوالي ثلاثة أيام سنة 1955م ، وكانت حلقة وصل بين الشعب و قيادة الثورة بالولاية السادسة.

مكتبة الزاوية :

تعتبر مكتبة العائلة العثمانية بالزاوية من أغنى المكتبات في شتى العلوم ، و يعتبر الشيخ الحاج بن علي بن عثمان من أهم الشيوخ الذين أثروا المكتبة بجلب الكثير من الكتب من مختلف المناطق و كذا استصحابه للنساخ لينسخوا له الكتب التي لا تتوفر في المكتبات ، و هي إلى اليوم قبلة للباحثين و الكتاب و الجامعيين لإنجاز البحوث و رسائل التخرج ، بها أكثر من 5500 كتاب و أكثر من 1509 مخطوط يعود أقدمها إلى 355هـ .

جاء في قصيدة الشيخ عبد الحميد بن باديس في مدحه للزاوية و أهلها و هو مقتطف نشر في جريدة النجاح عام 1926 بعد زيارة قام بها للمنطقة :

عرجـــوا نحي منازل الأمجـــاد * و نـؤدي حـق زيارة للأسياد**
و نحـط أرجـلنا بـــدار كـرامة * مبـذولة الروضات للـــوراد**
فـــهي المـــلاذ لكـل جان خائـف * وهي الشفا من وصمة الأنكاد .**

إن الدور الهام الذي قامت و تقوم به الزوايا في الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري قديما وطيلة عهد الاحتلال...كما كانت حصناً منيعاً أمام جهود المنصرين الفرنسيين

ومن الباحثين الذين زاروا المكتبة واستفادوا من كنوزها الثمينة الدكتور أبي القاسم سعد الله، الدكتور بحيى بوعزيز، الباحث المهدي البوعبدلي، المؤرخ المحامي سليمان الصيد، النسابة عبد المجيد حبة، الشاعر زهير الزاهري وغيرهم ...

للعلم فإن المكتبة ملك للعائلة العثمانية وليست من أحباس الزاوية، فالحاج عثماني قد حبس المكتبة على نفسه ثم على من بعده على أن تقرأ الكتب داخلها ويمنع إخراجها في دائرة الزاوية حسب رسم حبس مؤرخ في 1948/02/04 بمحكمة طولقة.

تأسيس جامعة الجزائر:

كان ذلك خلال الفترة 1880 الى قيام الثورة التحريرية حيث بدأ بعض المؤرخين يكتبون تاريخ الجزائر حيث صدر قانون إنشاء المدارس العليا في الجزائر والتي اصبحت سنة 1909 تسمى جامعة الجزائر تحوي جامعة الجزائر – يومها - اختصاصات : الادب-الطب-الحقوق-العلوم... ولكن مختلف هذه الدراسات والمناهج كلها تبرر للاستعمار وتعمل على انجاحه واستمراره.

***في سنة 1935 تكونت اتحادية بين الجمعيات العلمية لشمال افريقيا باعتبار ان اهتمامات فرنسا تتجاوز حدود الجزائر الى تونس والمغرب.**

-وقبل 1933 ولد معهد مختص في الدراسات الشرقية بالجزائر ، الذي اهتم بالحياة العربية الاسلامية بالجزائر وتولى رئاسته(جورج مارسي ثم هنري بيريس) *وفي سنة 1940 ولد معهد الابحاث الصحراوية.

وظهر خلال هذه الفترة العديد من المؤرخين الذين تنقلوا إلى كل مكان من أجل الحقيقة التاريخية أبرزهم (ماسكري-ريني باسي : المختص باللغات واللهجات المحلية /دوتي: اختص في الابحاث الاجتماعية /جورج ايفير: اهتم بتاريخ الاحتلال /ستيفان غزال : الذي تخصص في تاريخ شمال افريقيا القديم /مارسيل ايمريت: الذي اهتم بتاريخ المجتمع –اجتماعيا اقتصاديا/ياكونو: الذي تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية .

وفي فرنسا: هناك شارل أندري جوليان (تاريخ شمال افريقيا) *مانصو(التاريخ الادبي لإفريقيا المسيحية) كانيا(الجيش الروماني الافريقي) *ديل (افريقيا البيزنطية)

***في سنة 1880: تأسست مصلحة الاثار التاريخية بالجزائر: التي قامت ببعث مدينتي جميلة وتيمقاد الرومانيتين.**
***في باريس تأسست سنة 1883 لجنة افريقيا الشمالية مهمتها : بعث الوثائق و الخطوط والنقوش الاثرية**
***في سنة 1910 تأسست لجنة بقيادة : جونار: لنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي في الجزائر حيث صدرت مراسلات (كولزيل- وروفيقو/فوارول/ديرلون/بوتان...**